والّا فمن المعلوم ان عاقلًا لا ينحت خشبةً او حجرًا بيدهِ ثمَّ يعتقد انهُ إلههُ ومعبودهُ ». انتهى كلام فخر الدين وقد اوردناهُ بالتفصيل لما فيهِ من الفوائد الجليلة ولعزة وجود الكتاب وجهل الناس هذا الكلام (ستأتي البقيَّة)

الدين المسيحي بازاء العالم الوثني

للسيد الجليل والعلامة النبيل جرمانوس معوَّد مطران اللاذقيَّة

هي نبذة انتقطها سيادة المؤلف الفضال من كتاب لهُ بديع لم يُنشر بعد بالطبع دعاهُ « رحلة الفيلسوف الروماني الباحث عن سيرة المسيح ». وفي هذا الفصل يُمثِّل فيلسوفًا دعاهُ مرقس في ظاهر مدينة رومية يتباحث مع رفيقٍ لهُ عن امر الاديان اذ يمرُّ بهما بطرس الرسول قادمًا من اليهوديَّة ليبشِّر بدين المسيح في عاصمة القياصرة (المشرق)

فلمَّا وصل مرقس ورفيقهُ الى هضبةٍ عنقاء (١ ارتقيا اليها وجلسا على قمتها المشرفة على السهول المفامض (٢ يسرِّحان الطرف في تلك المناظر الانيقة الشائقة. فاخذت رفيقهُ هزَّة الطرب وطفق يترنَّم. امَّا مرقس فكان صامتًا واجمًا كأنَّ على رأسهِ الطير تلوح على وجههِ علائم الكآبة والحيرة. فسألهُ رفيقهُ عن شأنهِ واستوضحهُ سبب كآبتهِ فتنهَّد الصعداء ورفع رأسهُ الى السماء ثمَّ التفت اليهِ وقال احسنت يا صالح بسؤالك عن شأني لانَّ المرء يتعزَّى بشرح حالهِ وكشف همومهِ الى اصحابهِ. ولاسيَّما لانَّ الامر الذي يهمني ويُقلق خاطري لجديرٌ بان يهتمَّ لهُ كل انسان. وينبغي ان يشغل خاطرك كما يشغل خاطري على السواء.

— قد زدتني رغبةً في الوقوف عليهِ فتكرَّم بايضاحهِ

— ان الكرب الذي اتجرَّع غُصصهُ ليس بحديث لانهُ تضيَّقني منذ بضع سنين وما برح ملازمي ليلَ نهار وهو يشتدُّ ويعظم حتى بلغ اقصى الدرجات ومحق كلَّ ما تاليَ من اسباب المسرَّات. فاخشى ان كاشفتك بهِ ان يصيبك البلبال الذي انا فيهِ

— لا تخشى بأسًا فربَّ امرٍ يرتاض لهُ شخص ولا يبالي بهِ الآخر

— اذن راعني سمعك وأحسن الاصغاء الى ما اقصهُ عليك من اسباب اشجاني: فاعلم يا صاحبي اني ممَّن قرأوا الدروس الفلسفيَّة واوغلوا في البحث عن الكون

١) المرتفعة الطويلة ٢) الاراضي المطمئنَّة

ومصير الانسان وقد باحثتُ اشهر الفلاسفة ووقفتُ على آرائهم المختلفة كافةً . ولكني لم أرَ بينها ما استطيع الاعتقاد به باطمئنان تامّ . فكنتُ غالبًا افتكر في الموت واسأل نفسي عمَّا اصير اليه بعده قائلًا: «ماذا يُراد بهذه الحياة . فمن اين اتيت والى اين اذهب ألستُ كالحيوانات مولودًا من التراب لكي اعيش يسيرًا في نور النهار ثمَّ اتوارى في ظلمة ليل لا ينقضي . أليست الحياة حلمًا لا يقظة بعده . ولعبةً يتحكَّم فيها الاتفاق ويتعاقب الفرح والحزن بلا قاعدةٍ اكيدة مطردة . انني سأموت لا محالة . ولكن ماذا يُحدث لي بعد الموت . وهل اصير الى حياةٍ جديدة ام اغرق في لجَّة العدم الذي خرجت منهُ . هل اذكر هذه الحياة بعد الموت ام انساها نسيانًا ابديًّا . ليت شعري متى خُلق هذا العالم وماذا كان قبل وجوده وهل وُجد منذ الازل . تلك يا صاحبي اسئلة مهمَّة اورثتني مزيد القلق والكآبة . لانهُ من المحقق انَّ العالم لا بُدَّ لهُ من نهاية اذا كان محدثًا . لكن ماذا يجري حينئذٍ هل يتبدَّل ذاك الوجود بالخواء ام يحدث ما يفوت المدارك البشريَّة معرفتهُ »

فهذه الخواطر وما ماثلها كانت تجعل الهموم تنتجي في صدري وتورثني كمدًا وشجوًا . والذي كان يحزنني بالاكثر هو اني كنتُ اجتهد في ابعاد هذه الافكار المقلقة عن عقلي فلم يغنِ اجتهادي قليلًا بل كانت تزداد وتزدحم في عقلي بسبب ما اشعر بهِ في داخلي من الرغبة المضطرمة في الخلود وعدم الفناء

واذ لم استطع الجزم بشيء من هذا القبيل بعد جهد المطالعة والاستقصاء لجأتُ الى مدارس الفلاسفة استرشدها فجلتُ في البلاد اليونانيَّة انتقل من مدرسةٍ الى أخرى واتردَّد الى اشهر اساتذتها مستطلعًا آراءهم وتعاليمهم لعلِّي اجد فيها هداي فلم أُصب الَّا الشكوك والارتيابات لانَّ احدهم يعلِّم ما يضادُّ الآخر ولاسيما فيما يختصُّ باصل الكون وغاية وجودهِ ومصير الانسان بعد هذه الحياة . فهنالك آراء متناقضة مبنيَّة على الحدس والتخمين لا على ادلَّة مأخوذة من طبيعة الشيء يركن اليها العقل . فعدتُ من سياحتي تلك اشدَّ ظمأ الى معرفة الحقّ مني فيما قبل

ولو كان الحقّ الذي التمس معرفتهُ امرًا لا يُعتب جهلهُ وبالًا لرغبتُ عن استعرافهِ . ولكنهُ الامر الجلل الذي تتعلَّق بهِ سعادتي . فان كان ما يقال عن خلود النفس وعقاب

الطرطروس(١ صحيحاً يجب على المرء ان يعيش عيشةً محمودةً فراراً من ذلك الطرطروس الهائل. والّا فهو حريٌّ بان يغتنم لذات هذه الحياة قبل فواتها ويتمتّع بمشتهيات النفس قبل مماتها. وهذا ما احاول الوصول الى معرفته. ولكني حتى الآن لم استطع الى تحقيقه سبيلاً. فبينا كنتُ اسمع اثبات خلود النفس من فلاسفة هذه المدرسة اذ انا في المدرسة الاخرى اسمع ما ينقض ذلك

وكذا يُقال عن سائر القضايا فليس فيها قضيّة واحدة اتفقت عليها آراؤهم. ولذلك ضاقت بي الدنيا على رحبها وعُيّيت عليّ المذاهب فلم اعد ادري ماذا اصنع. فلا لذّات الحياة رخيصةٌ عندي فاهجرها. ولا الوقوع في ذلك الطرطروس سهلٌ عليّ فاتعرّض لهُ. ولاسيما لاني خُلقت ابن أحذار فلا اطيق الخطار بالنفس ولا أُقدم عليه. وكفى يا صاحبي بهذه الهواجس مجلبةً لتنغيص عيشي وارتماضي

— عجباً من افكارك هذه التي لم أرَ حتى الآن احداً يهتمّ بها. فدَع عنك هذه الوساوس فما لك والتفكّر فيها. فتلك امورٌ يناط بالآلهة ان يكتموها عنّا او يبلّغوها الينا. فلو كانت معرفتها ضروريّة لنا لأعلنها لنا جوبيتير المتنا الاكبر

— ان اكثر العقلاء يتساءلون عن هذه الامور ولاسيما عن مصير الانسان بعد هذه الحياة ويهتمون بالوقوف على حقيقتها اهتماماً جزيلاً. وقد عرفتُ ذلك بالتجربة. ولكن ولا واحد منهم قد فزّعتهُ هولة الطرطروس كما افزع منها لانهم لم يديموا النظر اليها مثلي

— اذاً ستقضي ايّامك بين هولة الطرطروس ومَفزعة العذاب الموهوم. ولا جرم انك ستبلغ ميداء الحياة ولا تبلغ ما تريد معرفتهُ. لانهُ لا يُرجى ان يُبعث احدُ الاموات ويخبر بما هنالك

— قد سمعتُ القوم يتحدّثون كثيراً عن عرّافي مصر وانهم يُحضرون للمرء الميت الذي يريدهُ فيكلّمهُ كأنّما هو حي بعد ويسألهُ عمّا يشاء فيجاوبهُ. فيخطر لي ان اشخص الى مصر واتوسّل الى عرّاف بارع فاغريهُ بشيء من الدنانير ان يُحضر لي فيلسوفنا شيشرون فاسألهُ عن هذه الشؤون المهمّة فاقف منهُ على الحقّ اليقين. فان تحقّقت امنيتي هذه والّا فاتوجه من هناك الى اليهودية انشد فيها ضالّتي

(١ الطرطروس (Tartarus) عند اليونان والرومان بمثابة الجحيم عندنا

— وماذا تؤمّل استعراقهُ في اليهود وهنالك امّةٌ مهينة مزدراة تجحد آلهتنا وليس فيها فيلسوف او عرّاف

— ألم يتصل بك خبر الرجل العجيب الذي ظهر هنالك

— كلاَّ فمن هو وما خبرهُ

— لا ادري من هو . واماَّ خبرهُ فالذي نمى اليَّ منهُ انهُ اقام الموتى وشفى العميان والمخّمين . ونشر بين اليهود تعليماً جديداً عن مبدع الكون وعن الانسان ومصيرهِ . فلعلّهُ يكون هو الهادي الى الحقّ

— اشور عليك ان لا تعاني مشاقّ السفر وتبذل النفقات الطائلة لتسترشد رجلاً يهودياً في امور مُبهمة قد اعتاص على فلاسفة اليونان الألبّاء فهمها وادراك حقائقها . وهي منك ومنهم مناط الثريّا

— وهل ألام اذا املت بلوغ الوطر بمن قيل عنهُ انّهُ يحيي الاموات

— شأنك وما تريد . فهلمَّ نعود الى المدينة

فنهض كلاهما وعادا أدراجهما وما زالا يتداولان الكلام في الشؤون المذكورة حتى دنوا من باب المدينة على غَيْبَة (١ الشمس فاستوقفهما منظر رجل غريب داخل في الباب يعلو اثوابهُ الغبار ويظهر من تثاقلهِ في المشي انهُ قادم من مكان سحيق وقد اعياهُ المسير . فلما ان صار داخل الباب وقف في ناحية وجلّى ببصرهِ الى المدينة . فكان الكابيتول(٢ اول شيء وقع عليهِ بصرهُ ثمَّ امال نظرهُ قليلاً فشاهد البنايات الفخيمة الباذخة

وكان مرقس قد توقف مع رفيقهِ عن المسير ريثما يرى ما يبدو من هذا الغريب الذي وقف يستوضح عظمة مدينة القياصرة . وبعد هنيهةٍ دنا منهُ وقال لهُ :

أيمكنني ان اسألك ايها الغريب من انت وما سبب قدومك الى رومية

— انا بطرس بن يونا جئت لأكرز بالاله الحقيقي واقلب هياكل الالهة الكاذبة

— أنهُ والحقّ يقال لمطلبٌ جديد . فمن اين اتيت وما هو وطنك

— انّما انا من أمةٍ تحتقرونها وتقتنها

— انت اذن يهودي

---

١) اي عند غيابها

٢) هيكل رومية الاكبر المشيَّد على اسم المشتري (جوبيتير) فوق قمّة جبل كابيتولين

— نعم

— لا شكّ انك من عظماء قومك

— انما انا من عامّة قومي وصاليكهم. فأنا صيّاد سمك وليس عندي ذهب ولا فضة ولا املك شيئاً. وقد قضيتُ معظم العمر في هذه المهنة

— يظهر انك منذ تركت هـذه المهنة قد تشاغلت بدرس الحكمة والتردّد الى مدارس الفلاسفة لاقتباس العلوم والفصاحة

— كلّا فاني لا المُّ بشيء من العلوم والفصاحة ولم ادخل مدرسةً قط

— اذن عبادة الملك هي سهلة مستحبّة يتقاد اليها الناس من تلقاء نفوسهم منجذبين اليها بما فيها من السهولة والعذوبة والمنفعة حتى انك اقدمت على دعوتهم اليها لا تتكل على فلسفة ولا تستند الى فصاحة

— كلاّ فاني ادعو الناس الى عبادة إلهٍ قد صُلب على خشبة العار

— ما هي تلك الديانة يا ترى ؟

— هي الديانة التي يحكم المتكبّرون وذوو الشهوات بانها حماقةٌ. لانها تناصب كلّ الرذائل التي بُني لها هياكل في هذه العاصمة

— أوَ بهذه الديانة أتيت تكرز ههنا آملاً ان تُحرز لها أتباعاً ومُشايعين ؟

— ساكرز بها ليس ههنا فقط بل في المعمورة باسرها ايضاً

— لا شكّ اذن بانّ لك مؤازرين ونصراء من اصحاب الاقتدار والجاه والاغنياء والفلاسفة المشاهير. وربّما كان قيصر نفسهُ من نصرائك الذين عليهم تتوكل في بثّ تعاليم ديانتك ونشرها

— اني اقترح على الاغنياء ان يزدروا الغنى بل ان يتركوا ثروتهم للفقراء والمساكين. واطلب من الفلاسفة ان يُخضعوا عقولهم للايمان ومن قيصر ان يتنحّى عن الرئاسة الدينيّة. وان لا يدعو نفسهُ فيما بعد حبرًا اعظم ورئيس دين لشعبه

— لا ريب ان كلّ الناس ولاسيما العظماء منهم سيضادونك ويناشبونك حربًا هائلة فاذا تعمل حينئذٍ ؟

— لا انفكّ مبشّرًا بهذه الديانة ولو لاقيت في سبيلها الموت الاحمر (١

(١ ما ذُكر من المخاطبة الى هنا المقطع اخذناهُ بتصرُّف عن تأليف العلّامة ايتنجر المدعو

— قُل لي على الاقل ما اسمهُ ؟

— يسوع المسيح وقد ظهر في اليهودية وصُلب في اورشليم بين لصين

— اني ارى فيما تقول معميات وألغازًا قد التوى عليَّ فهمها. فلم اسمع قطّ ذكر إلهٍ قد صُلب بين آلهة الامم كلها. فمن هو هذا الاله ومن الأمّة التي تعبدهُ واين نُصب تمثالهُ وما معنى صلبهِ بين لصين

— ستعرف ذلك فيما بعد

— قد اتصل بي ان قد ظهر هناك انسان يشفي المرضى ويُقيم الموتى بكلمتهِ

— هذا هو يسوع المسيح الاله الذي أُبشّر بهِ بعينهِ

— كنت اظنّ أنهُ لم يزل حيًّا. وقد اعتزمت ان امضي الى اليهوديّة لاراهُ

— أنهُ قد مات على الصليب برضاهُ لاجل خلاص الناس ولكنّهُ قد قام من بين الاموات بقوّتهِ الالهيّة بعد ثلاثة ايام وتردّد على الارض بين اخصائهِ اربعين يومًا ثمّ صعد الى السماء بعد ان اوعز الينا نحن تلاميذهُ ان ننشر تعليمهُ السماوي في المسكونة باسرها داعين اليها كلّ امّة من امم الارض

— هل لهُ اتباع في اورشليم ؟

— نعم وهم كثيرون ليس من اليهود فقط بل من سائر الامم ايضًا وليس في اورشليم وحدها بل في جهات اخرى كثيرة ايضًا

— اضحك يا رجل ان لا تتكلم امام الرومانيين عن إلهك والتعاليم التي ذكرتها لئلا يضحك منك العامّة ويُوقع بك أولو الامر. فان ما تريد نشرهُ بينهم يُحسب ضربًا من الحماقة واهانة للمملكة والملك واحتقارًا للشعب وآلهتهِ. فصدّ عن عزمك واغنم نفسك. فان وراء ما تنويه الفضيحة والبوار والموت الزؤام ولا جرم ان الغرور والدعاة والطمع في احراز الشهرة وعدم التبصر في مصاير الامور قد جعلتك ايها الرجل لا ترى وبال مسعاك وحملتك على ان تعرّض نفسك لخطر جدّ عظيم يحسن بك استدراكهُ قبل ان يدهمك والسلام

« محاماة النصرانية » (ج ٣ ص ٢٨٣) لموافقته لموضوعنا ودوّنّا تلك الخاطبة بما يلي المقطع المذكور . ولا غرو ان هذه الخاطبة لم تقع بين بطرس ورجل معيّن ولكنها تنطق في الحقيقة بلسان حال الرسول والرومانيين الذين انطلق اليهم ليبشرهم بالخلاص . وتصف بألطف اسلوب حالة الفريقين